

أحمد سامح الخالدي - رائد الفكر السياسي التربوي

أحمد هاني محاميد*

الخالدي رائد الفكر السياسي التربوي

تمهيد:

كانت التربية شغل عدد كبير من المرّين الفلسطينيين. لكنّ البراعة في التّعليم هي أمر آخر، وتفتّق ذهن المرّي عن سياسة تربويّة يضع عناصرها من تجربته وعلمه، هي أمر آخر. والفكر السياسيّ التربويّ ليس ممّا يصادف في كلّ مدرسة؛ إذ أنّ شروط توافره من أصعب الشُّروط، لاختلافه وتداخله بجملة من العلوم والمعارف تتراوح بين التّاريخ واللُّغة وعلم النّفس وعلم الاجتماع وأصول المخاطبة والإعلام بمعناه الاجتماعيّ، وبعده من الكفاءات والملكات مثل الوعي التّاريخيّ والفكر الاستراتيجيّ والتّخطيط والقدرة على الرّبط بين السّبب والنّتيجة في كلّ ما يتعلّق بمناهج التّعليم، وأثر الكلمة والتّوجيه في سلوك التّلاميذ.

إنّ الفكر التربويّ السياسيّ يقتضي فكراً شاملاً متكاملًا يضع لكلّ علم خطّه، ولكلّ مرحلة تعليميّة دورها ضمن المسار التّعليميّ العامّ. وهذا ما تميّز به مرّيان كبيران حملتهما النّكبة خارج فلسطين؛ أحدهما إلى مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة، وهو خليل السّكاكيني⁽¹⁾، والآخر إلى بيروت، وهو أحمد سامح الخالدي.

* باحث - كلية سخنين - أم الفحم.

¹ - خليل السّكاكيني (ولد في 23 يناير 1878 - وتوفي في 13 أغسطس 1953) أديب ومرّ فلسطيني مقدسي مسيحي. اهتمّ باللّغة والثّقافة العربيّة. ويعتبر من رواد التربية الحديثة في الوطن العربي؛ الأمر الذي كان له أثر كبير في تعليم عدّة أجيال. وكان عضوًا في المجمع اللّغوي بالقاهرة. نشر له اثنا عشر مؤلّفًا في حياته. عاش في فترات متلاحقة في كلّ من فلسطين والمملكة المتّحدة والولايات المتّحدة الأمريكيّة وسوريا ومصر. اعتقل في القدس أثناء الحرب العالميّة الثّانية وسجن في دمشق.

ورغم أنّ كتاباتهما ظهر معظمها قبل النكبة مباشرة، وبعضها قبل النكبة طويلاً؛ إلا أنّ أثرهما التربويّ ظلّ قائماً، بل لعلّه ازداد بالممارسة العلميّة والعملية التي أدياها كلٌّ في موقعه. فكان عملهما من مآثر العمل الفلسطينيّ خاصّة، والعمل العربيّ عامّة⁽¹⁾.

أحمد سامح الخالدي (1896⁽²⁾/1895⁽³⁾-1951)⁽⁴⁾.

الكثير ممّا لم يسمع عن هذا الرّجل الذي أثرى المكتبة العربيّة بكثير من المؤلّفات المتنوّعة، والكثير ممّا لم يعطِ هذا الرّجل المكانة التي يستحقّها بين دقّات الأدب

ولكنّه تمكّن من الخلاص من سجنه والتحق بقوّات الثورة العربيّة. وفي طريقه للانضمام إليهم كتب نشيد الثورة العربيّة، يقول فيه:

أيّها المولى العظيم فخر كلّ العرب
ملكك الملك الفخيم ملك جيّد النّبي
نحو هذا الملك سيروا قبل فوت الرّمن
وعلى الخصم أغيروا لخلص الوطن.

(انظر: العودات، يعقوب. أعلام الفكر والأدب في فلسطين. دار الإسرائ. 1992. ص 276). في كتابات السّكاكيني ترى تلميحاً واضحاً ترتبط فيه التّربية بالمشاعر القوميّة. (الموسوعة الفلسطينيّة (الدّراسات الخاصّة). ج3. ص 721. أنظر - أيضاً: العودات، يعقوب. أعلام الفكر والأدب في فلسطين. دار الإسرائ - القدس، 1992. ص 273-284.

¹ الموسوعة الفلسطينيّة (الدّراسات الخاصّة). ج3. ص 717.

² الموسوعة الفلسطينيّة. دمشق. 1984. ج1. ص 97.

³ الموسوعة الفلسطينيّة. بيروت، 1991. ج3. ص 718.

⁴ - هناك خلاف حول سنة ميلاده. فمنهم من كتب أنّ سنة الميلاد 1895، ومنهم من قال: 1896. والغريب في الأمر أنّ الموسوعة الفلسطينيّة الأولى أكّدت أن سنة الميلاد كانت: 1896، بينما جاءت الموسوعة الفلسطينيّة: القسم الثّاني (الدّراسات الخاصّة)، مؤكّدة أنّ سنة ميلاده: 1895.

والتربية والتأليف في الوطن العربي عامة، وفي الأدب الفلسطيني على وجه الخصوص. ولست أزعم أنني كنت على علم بهذه الشخصية الفريدة، والتي خلّفت لنا آثاراً عظيمة في الأدب والتربية والإدارة؛ ولكن هذا البحث سلط لي الضوء على كثير من الأمور التي لم تكن في مخيلتي من قبل؛ الأمر الذي يجعل الباحث يقف مندهشاً من وفرة وعمق ما كتبه الخالدي.

وربما يغلب الظنُّ عندي أنّ هذه الشخصية الوارفة الكتابة تستحقُّ من يقف عندها، ويحلّل أعمالها بصورة ترقى إلى المكانة التي يجب أن يحتلّها كاتبنا وباحثنا الكبير.

هذه المقديمة كان لا بدّ منها كي نكون موضوعيين في الكتابة والتحليل.

يُعدُّ الخالدي أبا التربية الحديثة في فلسطين، وأحد كبار المرّين العرب في العصر الحديث⁽¹⁾؛ حيث كرّس حياته من أجل بناء أمة متعلّمة؛ مؤمناً بأنّ العلم أساس تقدّم الأمم وبنائها، وفي سنواته الأخيرة اهتمّ بمساعدة اللاّجئين الفلسطينيين في لبنان، ورعاية شؤون تعليم أبنائهم⁽²⁾.

ولد في بيت المقدس، وتلقّى دراسته في كولنيّة الأميركيّين في مدرسة المطران بالقدس، ودرس الصّيادلة في الجامعة الأميركيّة ببيروت، ونال شهادتها سنة 1917. خدم في صفوف الجيش العثمانيّ في أواخر الحرب العالميّة الأولى، وبعد أن وقعت فلسطين في قبضة الانتداب البريطانيّ عاد إلى فلسطين واعتزل الصّيادلة، وعيّن مفتشاً في إدارة المعارف العامّة للوائي يافا وغزّة سنة 1920⁽³⁾. وانكبّ على طلب المزيد من العلم ونال

¹ - شاهين، أحمد عمر. موسوعة كتّاب فلسطين في القرن العشرين. دار الثقافة في منظّمة التحرير، 1992.

² - الموسوعة الفلسطينيّة ج.1 ص.97.

³ - العودات، يعقوب. من أعلام الفكر والأدب في فلسطين. القدس، 1992. ص.146.

درجة (الماجستير) في التربية. بالإضافة إلى درجة أستاذ في العلوم التي أحرزها من الجامعة الأمريكية.

وتقديرًا لكفاءاته نقل مديرًا مساعدًا لمدير المعارف العام، وفي ربيع 1925 وصل اللورد بلفور إلى القدس ليدشن الجامعة العبرية فأضربت المدارس وكانت دار المعلمين في طليعتها، فغضَّ الدكتور خليل طوطح؛ مديرها في ذلك الوقت الطَّرف عن تهدئة الإضراب واستئناف الدِّراسة، فاستقال من منصبه، واختارت إدارة المعارف العامَّة أحمد سامح الخالدي مديرًا لتلك الدَّار، ومنحته بعض الصَّلاحيَّات والامتيازات، وأقرَّت اقتراحًا تقدَّم به للمسؤولين وهو تسمية ذلك المعهد بـ "الكلية العبرية" وفي عهده تخرَّج عشرات من الشُّبَّان العرب المثقَّفين⁽¹⁾.

ولم يُنسبِ منصبه الرفيع هذا أبناء الشهداء الذين فقدوا آباءهم دفاعًا عن فلسطين... فألَّف لجنة أسماها "لجنة اليتيم العبرية العامَّة"، حيث تألَّفت هذه اللُّجنة من: أحمد سامح الخالدي رئيسًا، والدكتور يوسف هيكل سكرتيرًا، ورجائي الحسيني أمينًا للصُّندوق، وشفيق منصور نائبًا أولًا للصُّندوق، وميشيل أباكاروس، شبلي الجمل، أحمد خليفة، أحمد القاسم، نصوح بيضون أعضاء⁽²⁾. وأنشأ مع أعضائها معهد أبناء الشهداء في دير عمر (غربيّ القدس) وجمع التبرُّعات لتعليم أولئك الأيتام.

وبعد النكبة التي عصفت بفلسطين سنة 1948 نزع مع زوجته الأدبية السيِّدة عنبرة سلام الخالدي وأبنائه إلى لبنان، وكرَّس حياته لمساعدة اللّاجئين الفلسطينيين

¹ - من أعلام الفكر والأدب في فلسطين. ص 146.

² - المصدر السابق. ص 146.

ورعاية شؤون تعليم أبنائهم. وفي 27-9-1951 أصيب بضعف في قلبه، وقضى نحبه بالسكتة القلبية في مصيفه بيت مري بلبنان⁽¹⁾.

ويحدّثنا الناقد الأكاديمي الدكتور كامل السّوافيري، عن مكانة (الخالدي) الأدبيّة فيقول: "في غضون الحقبة من (1930 إلى 1948م) التي تولى فيها أحمد سامح الخالدي عمادة الكليّة العربيّة ألقى على طلبة الكليّة العربيّة محاضراته في التّربية وعلم النّفس، وألّف وترجم عددًا من الكتب التّربويّة التي تعالج طرق التّدريس وأركانه، وأفضل المناهج الحديثة، ممّا جعله الفارس المعلّم في هذا الميدان الذي أطلق عليه أبو التّربية الحديثة في فلسطين والعلم المشهور بين كبار المرّبين العرب في العصر الحديث"⁽²⁾.

وقد اهتمّ (الخالدي) بالمؤلّفات الأدبيّة العربيّة القديمة، من باب خدمة قضايا وطنه وأمّته العربيّة، وعمل على تحقيق المخطوطات من ذلك اختياره «مؤلّفين كتبهما الياقوتيّ في القرن الثّاني عشر. في أثناء الحروب الصّليبيّة. في طلب المساعدة للدّفاع عن البلاد المقدّسة ضدّ الغزاة الأجنبيّ. وبدا للخالدي أنّ التّهديد الصّهيونيّ لفلسطين يستدعي هذه السّابقة، لأنّ الياقوتيّ، كي يجعل الأرض غزيرة أكثر لدى القارئ، أبرز أهمّيّتها الدّينيّة وطابعها التّاريخيّ العربيّ الإسلاميّ: وكان الخالدي يأمل من نشر هذين الكتابين أن يقوّيا الإحساس بالوطنية لدى من يقرأهما من العرب.

ويرى الدّكتور عدنان أبو غزالة أنّ القارئ يستطيع أن "يحسّ في تعليق الخالدي على المراجع التي نشرها تأثير ولاء جديد كان قد أصبح جليًّا بين المثقّفين العرب الفلسطينيّين، ولاء أحسن ما يوصف به أنّه يشبه الوطنية أكثر من شبهه القوميّة. فقد كان مستوحى من مثال أوروبّا الغربيّة، وخصوصًا فرنسا وإنكلترا، حيث يتساوى

¹ - من أعلام الفكر والأدب في فلسطين. ص 146.

² - السّوافيري، كامل. الأدب العربي المعاصر في فلسطين. (1860-1960). 1987.

الشُّعوران القوميُّ والوطنيُّ، وحيث كانت الوطنيَّة هي الولاء الَّذي يدين به المواطن للبلاد. وعدَّ الخالدي الولاء الَّذي كان العرب الشَّامِيُّون يحسُّونه تجاه بلادهم في القرنين الثَّاني والثَّالث عشر شبيهاً بذلك الولاء الَّذي كان يحسُّه الفلسطينيُّون في القرن العشرين تجاه ما يخصُّ بلادهم"⁽¹⁾.

أمَّا عن إسهامه في التُّهوض بالمكتبة الخالديَّة، وعن حياته في سنواته الأخيرة، فيخبرنا نجله الدُّكتور وليد في كتابه "المكتبة الخالديَّة في القدس (1720م - 2001م)"، بما يلي: "استمرَّ الحاجُّ راغب الخالدي يساعده الشَّيخ خليل الخالدي في الإشراف على المكتبة حتَّى أوائل الأربعينيَّات، يعاونهما الشَّيخ أمين الأنصاري. على أنَّ الشَّيخ خليل توفِّي العام 1941م، وأخذ الوالد المرِّي والمؤرخ أحمد سامح بن راغب مدير الكليَّة العربيَّة بالقدس مهمَّة الإشراف عن والده لكبر سنِّه. واستمرَّ أحمد سامح في الإشراف على المكتبة بمعونة الشَّيخ الأنصاري والباحثة أسطفان حنَّا أسطفان حتَّى التَّكبية، حين اضطرَّ إلى هجرة منزله والكليَّة العربيَّة في أيَّار/مايو 1948م، لوقوعهما على خطِّ النَّار واللُّجوء إلى لبنان، حيث توفِّي العام 1951م عن 54 عامًا، بعد أن أسَّس مدرسة للأجئين الفلسطينيَّين في قرية الحنيَّة من أعمال صور.

تولَّى الخالدي إدارة الكليَّة العربيَّة في القدس في عزِّ ازدهارها، وأنشأ نظامًا لاختبار الدِّكاء قلَّمَا عرفه العالم العربيُّ من قبل⁽²⁾، وأصبحت الكليَّة العربيَّة في عهده قمَّة الهرم التُّربويِّ في فلسطين. وقد طبَّق في الكليَّة نظريَّته في اختيار الطَّلبة المتفوقين والاعتناء بهم وفرزهم عن أقرانهم غير المتفوقين. وقد أثبتت هذه النَّظريَّة جدواها في تخريج كوكبة من الأدباء والأساتذة البارزين؛ منهم إحسان عبَّاس، وتوفيق صايغ،

¹ - أبو غزالة، عدنان. الثقافة القوميَّة في فلسطين خلال الانتداب البريطاني. مكتبة الأدب والثقافة الفلسطينيَّة.

² - الموسوعة الفلسطينيَّة. الدِّراسات الخاصَّة. ج.3. ص.718.

وجبرا إبراهيم جبرا، وخيري حمّاد، وناصر الدّين الأسد وغيرهم⁽¹⁾؛ والّذين أصبحوا أعلّماً عظيمين في الأدب والنّقد الأدبيّ. ولا شكّ لدينا أنّ طريقة الخالدي في إدارة الكليّة بهذا الشّكل، عزّزت من مكانة الكليّة، ومن مكانة هذا الرّجل.

مؤلّفات الخالدي:

أثرى الخالدي المكتبة العربيّة، وحقل التّربية والتّعليم، وخزانة التّاريخ العربيّ بمؤلّفات نفيسة توخّى فيها التّوجيه والإرشاد، وعرض المفاخر الّتي فاض بها التّاريخ العربيّ⁽²⁾. ولم يكفّ عن الكتابة والتّأليف يوماً، فكان يعقد الفصول في مجلّتي «الأديب»⁽³⁾ و«الرسالة»⁽⁴⁾، ونشر المقالات في عدّة جرائد.

وفيما يلي أسماء الكتب الّتي صنّفها الخالدي⁽⁵⁾:

- (1) إدارة الصّفوف، طبع سنة 1928 و1943.
- (2) أركان التّدريس، طبع سنة 1943.
- (3) أنظمة التعليم (جزءان) طبع الأوّل سنة 1933 والثّاني سنة 1935.
- (4) الحياة العقليّة (مترجم) تأليف وودورث.

¹ - نفس المصدر. ص 718.

² - من أعلام الفكر والأدب في فلسطين. ص 146.

³ - مجلّة الأديب: مجلّة شهريّة أدبيّة، صدرت في بيروت في (يناير) 1942م، صاحبها ومديرها المسؤول ألبير أديب، واستمرّت بالصّدور حتّى وفاة صاحبها عام 1948م، وتشكّل مجموعتها تاريخاً للحركة الأدبيّة والتّطوّر الفكري في المشرق العربي في النّصف الثّاني من القرن الماضي.

⁴ - مجلّة الرّسالة: مجلّة ثقافيّة، ترأّس تحريرها الأديب المصري أحمد حسن الرّيّات (1885 . 1968م) في عام 1933م، وقد كتب فيها معظم المقالات عن رموز الأدب العربي آنذاك أمثال: مصطفى صادق الرّافعي، وعبّاس محمود العقّاد، وطه حسين، وأبو القاسم الشّابي.

⁵ - من أعلام الفكر والأدب. ص 146-147.

- (5) طرق التّدرّيس المثلّي، طبع سنة 1937.
- (6) رسالة اختبار الدّكاء.
- (7) الطّريقة المنتسوريّة في التّربية والتّعليم، تأليف ي. ج. هولز.
- (8) أهل العلم بين مصر وفلسطين، طبع سنة 1946.
- (9) نظام التّعليم في العهد العثمانيّ، (تذكر هذه الرّسالة أسماء العلماء الفلسطينيّين الذين تعلّموا في مصر واستوطنوها أو توفّوا فيها، والعلماء المصريّين الذين سكنوا بيت المقدس أو الخليل أو درسوا في معاهد فلسطين وكانت لهم بها صلة علميّة، وقد كان مصدر المؤلّف الرّئيسي كتاب (الأنس الجليل) لمؤلّفه مجير الدّين الحنبليّ المقدسيّ ثمّ (شذرات الدّهَب) لابن العماد الحنبليّ وغيرهما، وتبيّن هذه الرّسالة أنّ الصّلة العلميّة بين مصر وفلسطين لم تنقطع منذ القرن الأوّل الهجريّ حتّى يومنا هذا.
- (10) رجال الحكم والإدارة في فلسطين (من عهد الخلفاء الرّاشدين إلى القرن الرّابع عشر الهجريّ).
- (11) العرب والحضارة الحديثة، طبع سنة 1951.
- (12) المعاهد المصريّة في بيت المقدس، طبع سنة 1946.
- (13) رحلات "ديار الشّام"، طبع سنة 1964.
- (14) أهل العلم والحكم في ريف فلسطين، طبع سنة 1968.
- أمّا المخطوطات الّتي أخرجها الخالدي وأحيّاها بالنّشر فهي:
- (1) رسالة ترغيب الأنام في سكّى الشّام، لعز الدّين السّلمي، طبع سنة 1940.
- (2) فضائل بيت المقدس، للواسطي.
- (3) مثير الغرام بفضائل القدس والشّام، لأبي محمود المقدسي، طبع سنة 1945.

4) الإعلام بفضائل الشّام، للميني، طبع سنة 1946. (أضف إليه ملحقًا في تراجم

الصّحابة والتّابعين الّذين نسبوا إلى الشّام أو نزلوا بها أو استشهدوا فيها).

5) أفنعة الحبّ (مترجم) تأليف الدّكتور شتيكل، طبع سنة 1946.

ومن مؤلّفاته المخطوطة:

1) تاريخ المعاهد الإسلاميّة (في ثمانية مجلّدات تناول فيها تطوّر الثّقافة عند

المسلمين والعرب في سائر معاهدهم ممّا أنشأوه في الشّرق والغرب).

2) الأردن في التّاريخ الإسلاميّ.

3) تاريخ بيت المقدس.

مكانة الخالدي الفكرية

- هو أوّل فلسطينيّ عربيّ غلبت على تفكيره وأساليب عمله، ونظرته إلى حياته،

وحياة الفرد والمجتمع، الصّبغة العلميّة المحض، وقد كان الرّجل مؤلّفًا من

عنصرين: الرّوح العلميّة يحلّل بها كلّ شيء مبيّنًا سرّ تقدّم العرب أو تأخّره،

وعنصر النّكتة الطّريفة، وإنّما قلنا إنّه هو أوّل فلسطينيّ غلبت هذه الصّبغة

عليه، لا لنفي عن غيره ما استطاع أن يحوزه هو، فغيره في فلسطين كثيرون علا

كعبيهم في هذا المضمار، بل لأنّ هذه الصّبغة تضاعفت، قيمتها بحدّ ذاتها أوّلاً

وبالنّسبة إليه، ثانيًا لأنّه صاحب رسالة لازمة لكلّ حامل رسالة، فهي هنا للخالدي

المرّي المنشئ، الملتزم، وقد اقترن هذا بأشياء أخرى من صفاته فظهر متفردًا.

- عقيدته العلميّة هذه كانت ترمي إلى أن يجعل التّلميذ فالمعلّم فالأستاذ في

فلسطين أداة عقليّة متحرّرة ليس فيها ضباب ولا حولها ضباب، ومن هنا كان يرى

السّبيل إلى أن تتلقّح عقول العرب بالأساليب العلميّة، فغد العرب لا بدّ أن يكون

مشرّقًا فيزدادوا قوّة وثقة بأنفسهم، إنّما هم أصحاب الغد والمستقبل.

- كان يهدف إلى إخراج جيل عربيّ حصين العقل، والفكر، متين العقيدة العلميّة، وهذا الجيل كاد يتمُّ أمره ويخرج إلى الميدان، ويغيّر أوضاع فلسطين، فالعرب أخذت نهضتهم الدّهنيّة العلميّة تنمو وتتّسع آفاقها، ولا بدّ لهذه النهضة من مثل عليا تسير عليها.

أشهر كتبه:

1. رحلات من دمشق إلى القدس

منذ صدر الإسلام اهتمَّ الرّحالة العرب الذين وفدوا فلسطين على مرّ العصور بزيارة أماكنها المقدّسة ومعالمها التّاريخيّة، ونالت مدينة القدس القسط الأوفر من عنايتهم، وقد دوّن بعضهم صفحات بالغة الأهميّة عن رحلاتهم، ومن أشهر الرّحلات التي قام بها أهل الشّام إلى فلسطين تلك التي ذكرها الخالدي في كتابه «رحلات من دمشق إلى القدس»، وقد صدر الكتاب في طبعته الأولى في مدينة يافا عام 1946م، وأعيدت طباعته ضمن سلسلة (آفاق ثقافيّة مقدسيّة) التي أصدرتها الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب بمناسبة اختيار القدس عاصمة الثّقافة العربيّة لعام 2009م.

قدّم للطبعة الدّمشقيّة وأعدّها الأديب السّوري خيرى الدّهبي، الذي يقول عن هذا الكتاب: «في كتابنا هذا شكل جديد من أدب الرّحلات والرحلات الدّينيّة تحديداً أي الشّكل المبسّط من الحجّ، والحجّ طقس موجود في الكثير من الأديان». ويستعرض الكتاب أربع رحلات دينيّة من دمشق إلى بيت المقدس، قام بها في النّصف الأوّل من القرن الثّاني عشر الهجريّ (السّابع عشر الميلاديّ)، ثلاثة أعلام هم، الشّاعر الصّوفيّ والمؤلّف الشّهير والرّحالة عبد الغني النّابلسيّ الدّمشقيّ، وكانت رحلته من دمشق إلى بيت المقدس وما حولها ذهاباً وإياباً في عام (1101هـ. 1689م)، والشّيخ مصطفى البكري الصّديقيّ الدّمشقيّ، وهو باحث ورّحالة

وتلميذ للنَّابلسيِّ، قام برحلتين الأولى عام (1122هـ . 1710م) والثَّانية في (1126هـ . 1714م)، وأمَّا الرَّحالة الثالث فهو الشَّيخ مصطفى أسعد اللُّقيعيُّ، ولد في دمياط سنة (1105هـ . 1693م) ونزل دمشق وفيها توفِّي عام (1178هـ . 1764م)، وقد قام برحلته الَّتِي أسماها «سوانح الأَنس برحلي لوادِي القدس» عام (1143هـ . 1730م)، وهو من مريدي الشَّيخ مصطفى البكري، وقد اجتمع به في القدس.

2. «سلام على الإخوان في حضرة القدس»

وفيه يسرد الكاتب رحلة النَّابلسيِّ إلى فلسطين، وبيت المقدس، فيذكر نشأة عبد الغني النَّابلسيِّ الَّذِي نشأ في دمشق، وأغلب الظَّنَّ - كما يرى الكاتب - أنَّه من أحفاد النَّابلسيِّين الَّذين وفدوا إلى دمشق أثناء الحروب الصَّليبيَّة مع بني قُدامة هربًا من الخضوع لحكم الصَّليبيِّين فقطعوا ضاحية قريبة من دمشق هي الَّتِي ستسَمَّى فيما بعد الصَّالحية، أمَّا تاريخ ولادته فهو 1641م ووفاته 1731م. ويعرِّف الكاتب هذه الشَّخصية بقوله: "هو شاعر صوفيٌّ وعالم بالدين والأدب، رحل إلى بغداد وعاد إلى سورية وزار فلسطين ولبنان ومصر والحجاز لكنَّه استقرَّ في دمشق وفيها توفِّي". له مصنَّفات كثيرة جدًّا منها: «شرح فصوص الحكم لابن عربي» و«إيضاح الدَّلالات في سماع الآلات»، و«الحضرة الأنسيَّة في الرِّحلة القدسيَّة» و«تعطير الأنام في تعبير المنام». وقد زار النَّابلسي في رحلته إلى فلسطين الأماكن المقدَّسة وسجَّل للحياة الثقافيَّة والاجتماعيَّة وغيرها في المدن الَّتِي مرَّ بها. ويورد المؤلِّف للنَّابلسيِّ قصيدة تعدُّ من أشهر القصائد الَّتِي نظمت عن مدينة القدس في القرنين السَّابع عشر والثَّامن عشر، وعنوانها «سلام على الإخوان في حضرة القدس» وفيها يقول:

سلامٌ على الإخوانِ في حضرةِ القدسِ

ومنْ مُحيِّتْ آثارهمْ في ضياءِ الشَّمسِ

سقى الله أيامًا بهم قد تقاصرت

وليلات وصل بالمسرة والأنس

ومن يوميات رحلة الشيخ النَّابلسي نقتطف وصفه لسور بيت المقدس يقول:

«.. سور بيت المقدس سور جديد متين مشيد قوي الأركان، عظيم البنيان، يحيط بالبلد كلها، وعرها وسهلها، مبني بالبيد والحجر المنحوت وفي داخله جميع الأماكن والبيوت، وقد أخبرنا أنه من بناء السلطان الملك المظفر سليمان خان، ومن المعروف أن الملك المعظم عيسى بن العادل أخا صلاح الدين أرسل من دمشق كما جاء في أبي الفداء، الحجارين والنقابين إلى القدس فخرَّب أسواره (616 . 1219م) وكانت قد حصنت للغاية وذلك على زعمه خوفًا من استيلاء الفرنجة عليها.

وفي سنة (626هـ . 1228م) سلم الملك الكامل القدس للإمبراطور فردريك على أن يستمر سورها خرابًا ويكون الحكم في (الرستاق) لوالي المسلمين ويكون للإفرنج من (القرايا) ما هو على الطريق من عكا إلى القدس. ويعيد لنا الشيخ عشرة أبواب لسور القدس منها: باب العمود من جهة الشمال وباب آخر يسمى باب الداعية الموصل إلى حارة بني زيد وباب يسمى باب دير السرب، وباب الساهرة، ومن جهة القبلة باب المغاربة وباب صهيون (باب داود) ومن جهة الغرب باب صغير لصق دير الأرض، وباب المحراب المعروف بباب الخليل وباب الرحبة. وهذه الأبواب هي ذات الأبواب التي يعدها الحنبلي في كتابه الأنس الجليل الذي ألف سنة (901هـ).

أما الرحلة الثانية والثالثة اللتان يقف عندهما الكتاب فقد قام بهما الشيخ مصطفى البكري الصديقي المولود في دمشق (1099هـ . 1688م)، وهو تلميذ النَّابلسي، متصوف على الطريقة الخلوتية، وقد سكن في القدس بعد زيارته لها

وتزوَّج فيها، وألّف كثيرًا من كتبه هناك، وأكثرها في موضوع التَّصوُّف، ومنها انتقل إلى حلب فبغداد، فمصر، فالقسطنطينية، فالحجاز، ومات بمصر في العام (1162هـ. 1749م).

وتشمل رحلتا البكري وصفًا من دمشق إلى بيت المقدس وما حواليه ووصفًا للساحل الفلسطيني، وقد أسى الرحلة القدسيّة الثانية «الخطرة الثانية». الأنسيّة للروضه الدّانية القدسيّة».

أما الرحلة الرابعة فهي للشّيخ مصطفى أسعد اللّقبّي، وقد بدأ رحلته يوم الثلاثاء من ذي القعدة عام (1143هـ . 1764م) انطلاقًا من ثغر دمياط مخترقًا شبه جزيرة سيناء فغزّة فالرّملة فيافا فالقدس وما حولها ثمّ رجوعًا إلى دمشق، فصيدا فقبرص.

3. رجال الحكم والإدارة في فلسطين، من عهد الخلفاء الرّاشدين إلى القرن الرابع عشر الهجريّ.

يقع هذا الكتاب في ستّ وتسعين صفحة يسجّل فيه الكاتب أسماء الأمراء والحكّام ورجال الإدارة منذ عهد الخلفاء الرّاشدين، حتّى العهد العثمانيّ. ولا يغيب عنّا عمق وثقافة الكاتب الّذي استقى معلوماته من أمّهات الكتب التّاريخيّة؛ مثل الطّبريّ، والمسعوديّ، والبلاذريّ، والواقديّ، وابن الأثير، وابن كثير، والدّهبيّ، وغيرهم من المؤرّخين الإسلاميين.

ولم يكن قصد الكاتب أن يأتي على ذكر تاريخ فلسطين من القرن الأوّل الهجريّ إلى القرن الرابع عشر؛ وإنّما اقتصر على ذكر بعض الّذين تولّوا الحكم والإدارة في فلسطين، أو في أهمّ مدنها على توالي العصور⁽¹⁾.

¹ -الخالدي، أحمد سامح. رجال الحكم والإدارة في فلسطين. القاهرة، 2008. ص 3.

ويرى الكاتب أنّ فلسطين أصبحت مقاطعة مصريّة في عهد أحمد بن طولون، والإخشيديين، والفاطميّين، والمماليك البحريّة والبرجيّة، والعلويّين (محمّد على باشا وأولاده)، ثمّ عادت إلى حظيرة الدّولة؛ الدّولة العثمانيّة حتّى سنة 1917م⁽¹⁾. ويتابع الكاتب مبينًا أنّ فلسطين ظلّت مقاطعة مصريّة تُحكم من القاهرة، وتتأثّر بمدنيّة الدّولة المصريّة وثقافتها قرابة 657 سنة، مضيفًا أنّها أصبحت مصريّة مرّة أخرى في عهد محمّد علي⁽²⁾.

ويبيّن الكاتب مدى خطورة فلسطين، وموقعها الجغرافي، ومكانتها التّاريخيّة والدينيّة؛ الأمر الذي أدّى أن تكون مسرحًا للحروب على مدى التّاريخ⁽³⁾. وقد سرد الكاتب أسماء الحكّام والأمراء ورجال الدّولة والإدارة في فلسطين بصورة زمنيّة متسلسلة، فكانت كالآتي:

- عصر الخلفاء الرّاشدين، فلسطين في عهد الأمويّين، العهد العبّاسيّ، حكام دمشق في عهد العبّاسيّين، الدّولة الطّولونيّة المصريّة، عودة الشّام ومصر إلى حظيرة العبّاسيّين، فلسطين في عهد الإخشيديّين، حكام دمشق في عهد الطّولونيّين والإخشيديّين، فلسطين في عهد الفاطميّين، أخذ دمشق من الفاطميّين، القرامطة بدمشق، ملك قسّام التّراب لدمشق، حكام دمشق في عهد الفاطميّين، استيلاء المصريّين على عدّة بلاد من بلاد الشّام، دخول الصّليبيّين سوريا، الدّولة البوريّة، حكام السّلاجقة، دولة بوري، الدّولة النّوريّة (نور الدّين زنكي)، السّلطان نور الدّين الشّهيد في دمشق، آخر الخلفاء الفاطميّين، في عهد الأيوبيّين، دولة زنكي والأيوبيّين، الأيوبيّون، في عهد المماليك البحريّين، في عهد

¹ - رجال الحكم والمجتمع. ص 4.

² - رجال الحكم والمجتمع. ص 5.

³ - رجال الحكم والمجتمع. ص 5-7.

المماليك الشراكسة. حكّام دمشق في عهد المماليك، في عهد الأتراك العثمانيين، ولاية الشّام وكفلاؤها وأمراؤها ونوّابها، فلسطين تحت الحكم المصري، فلسطين في يد العثمانيين ثانية⁽¹⁾.

مدرسة الخالدي الفكرية في كتابه: "أنظمة التّعليم"

في هذا الفصل سوف نتطرّق إلى عقيدة الخالدي الفكرية من خلال كتابه "أنظمة التّعليم" ساردين فيه رأي الخالدي في العمليّة التّعليميّة، ورأيه في المدارس التّربويّة الأخرى، متطرّقين إلى كتاباته في هذا الكتاب، والذي يعدّ مرجعاً قوياً في عقيدة الخالدي التّربويّة.

على الرّغم أنّ الخالدي كان معاصراً لمرحلة رواج الإقبال على التّغريب الثّقافيّ في القرن المنصرم، إلّا أنّه كان ذا رأي صريح في ضرورة التّعليم باللّغة العربيّة كشرط من شروط نهوض الأمّة. فيقول في هذا السّياق: "لم يبق هناك من يناقش في أنّ اللّغة الوطنيّة يجب أن تصبح لغة التّعليم في جميع مراحلها، من بستان الأطفال حتّى الجامعة، وليس من أمّة بحاجة إلى هذه العقيدة كأمتنا التي هي في بدء نهضتها الآن، والتي لم تتح لها الطُّروف في القرون الأخيرة أن تسيطر على مقدرات أبنائها من الوجهة التّعليميّة. ولا جدال في أنّ كلّ إصلاح اجتماعيّ يجب أن يبنى على أساس هذا المبدأ، فالأمّة لا تحيا إلّا ب حياة لغتها وأدابها وثقافتها. أمّا ما يقال عن العقبات في هذا الصّدّد فتذليله أصبح ممكناً فيما يتعلّق بالتّعليمين؛ الابتدائي والثّانوي ومبتدأ العالي، ولا عبرة بكلام من يدّعي غير ذلك أو ينتحل الواهي من الأعدار، والثّابت المقرّر أنّه لا يمكن للأمّة أن يستقيم تفكيرها، وأن تتبوأ مكانتها بين الأمم إلّا إذا تمكّنت من التّعبير عن أفكارها وعواطفها بلغتها الوطنيّة... فاللّغة الوطنيّة الرّاقية والحياة النّامية

¹ - رجال الحكم والإدارة. ص 95-96.

هي كالرُجاج المصقول صقلاً فائقاً، تزيد في حدّة الدّهْن وتجعل الفكر واضحاً شفافاً⁽¹⁾.

إنّ الخالدي لم يكن من الذين يخافون الثّقافة الأجنبيّة؛ بل كان من الذين يدعون إلى أخذ ما هو مفيد لنا، مستفيدين من نظم التّعليم الأجنبيّة؛ بحيث نستطيع أن نقول إنّه كان من المتحقّقين الذين يرون أخذ الأمور وترك الأمور. يقول الخالدي في هذا السّياق "حسن صنعاً بدرسنا أساليهم، ونقاط الضّعف عندهم، وبالأخصّ في البلدان الثلاثة العظيمة الّتي لنا أعظم علاقة فكريّة بها، وهي إنجلترا وفرنسا وألمانيا، ولهذا يستحبّ درس أنظمة التّربية العالميّة واعتبار فوارق اللّغة والثّقافة، والاختلاف بين أمزجة الشّعوب، وفي مثل هذا الدّرس فائدة عظيمة لشعب ذكيّ قابل للتّكيّف"⁽²⁾. إنّ هذه الدّعوة إلى التّمييز في بعض فروع العلم والثّقافة تذكّرنا بدعوة الدّكتور إحسان عبّاس إلى تفرقة الثّقافة ذات الطّابع الإنساني العام، وضرورة اقتباس الأولى من أيّ مصدر، والحاجة إلى حماية الثّانية من أيّ استعارة تشوّهها. ولا عجب في ذلك؛ فإحسان عبّاس هو تلميذ تخرّج في الكليّة العربيّة الّتي كان يديرها الخالدي؛ أستاذه وقدوته.

ورغم أنّ الخالدي طالب أن تكون العربيّة هي اللّغة الّتي يتوجّب علينا أن نتمسك بها؛ تعليمًا وكتابة؛ إلّا أنّنا نلمس لديه بعض التناقض الواضح عندما يتحدث عن تجربة كمال أتاتورك حينما غير الكتابة التّركيّة من العربيّة إلى اللّاتينيّة، فيقول: "إنّ الخطوة العظيمة الثّانية"⁽³⁾ كانت إلغاء الحروف العربيّة، واستبدالها بالحروف

¹ - أعلام الفكر والأدب. ص 147-148.

² - الخالدي، أحمد سامح. أنظمة التّعليم (جزءان)، القدس، مطبعة بيت المقدس، 1933. ج1. ص 105-106.

³ - الخطوة الأولى العظيمة - كما يراها الخالدي- هي إلغاء الخلافة الإسلاميّة.

اللاتينية وذلك بموجب قانون صدر في نوفمبر 1928. ومع أنّ الحروف العربية كانت الوحيدة التي تستعمل في الكتابة باللغة التركية منذ ألف سنة؛ فإنّها وجدت غير كافية لأداء الغرض المطلوب. فالكلمة المكتوبة بالعربية يمكن قراءتها بطرق مختلفة، فتنشأ عن ذلك مشقّة عظيمة في قراءتها⁽¹⁾.

قلنا إنّ الخالدي اعتقد بضرورة فرز الطُّلاب المتميّزين، بحيث يولي لهم عناية خاصّة؛ فقد رأى أنّ الاهتمام المتساوي بين جميع الطُّلاب دون تخصيص المتفوّقين منهم، هو أمر عبثيّ لا طائل تحته؛ فهو ضارٌّ بالتّعليم؛ حتّى أنّه يرى أنّ التّعليم الثّانويّ لم يُجعل لجميع الطُّلاب:

"إنّ علّة العلل في رأينا... هي في أنّ نظام التّرفيع من الأقسام الابتدائية إلى الأقسام الثّانوية غير مرض... إنّ وسائل التّربية العالية إنّما هي مختصّة فقط بأولئك الذين يملكون قوّة ابتداع فكريّ ونشاط ذهني، يستطيعون معه أن يهذبوا أنفسهم. لمثل هؤلاء فقط يجب أن تسهّل الطّريق أن يعطوا جميع الوسائل الفضلى مهما كلف ذلك من النّفقات والعناء على الهيئة الاجتماعية⁽²⁾"

هذه النّظرة تجعلنا نقف وقفة المستغرب إلى حدّ ما؛ فالحقبة التّاريخية التي عاشها الخالدي كانت تحتم الرّعاية بكلّ الأطياف والمستويات التّعليمية والتّعليمية في فلسطين. فالمعاهد العليا ليست بالضرّورة حصراً ووقفاً على الذين يمتلكون الدّكاء المتوقّد؛ وإنّما هي ساحة متاحة لكلّ من أراد التّحصيل العلميّ؛ مع رأينا أنّ من نبغ منهم تتوجّب العناية به عناية تامّة. ومن جهة أخرى؛ هل التّحصيل العلميّ هو دليل على الدّكاء والنّبوغ؟ وما هي الأدوات التي من شأنها أن تحدّد المتفوّق من غير

1 - أنظمة التّعليم. ج.1. ص 87-88.

2 - أنظمة التّعليم. ج.1. ص 103-104، 131-138.

المتفوق؟ وهل كان الخالدي ديمقراطيًا من حيث نظرته إلى التّعليم؟ أم كانت نظرته فيها نوع من الدكتاتورِيّة والتّعصُّب؟.

الحقُّ أنّ آراء الخالدي في ديمقراطيّة التّعليم تبدو من النّاحية النّظريّة - على الأقلّ- قابلة للنّظر؛ رغم النّتائج الكبيرة الّتي أوتّمها هذا المرّي الكبير؛ الأمر الّذي يجعل مناقشته في هذا الأمر عسيرة جدًّا، ولكُننا لا نستطيع إخفاء نظرته الاستعلائيّة الواضحة.

إنّ النّظرة الّتي آمن بها الخالدي بشأن الطّلاب المتّميزين جعلته يضع مخطّطًا تعليميًّا خاصًّا بهذه الطّبقة من الطّلبة المتفوّقين، فيقول:

"إنّ تشكيل أقسام عليا للطّلاب المتقدّمين يتضمّن صعوبات إداريّة. ولكن هذه الصّعوبات الإداريّة يجب ألاّ تقف حائلًا. ومتى تمّ تشكيل هذه الأقسام وجب أن تتّصف بما يلي⁽¹⁾:

- (أ) إذا تألّفت مثل هذه الفرق وجب أن يرافق جماعة قليلة من المعلمين طّالهم من البداية حتّى النّهاية، فيتعرّفون على مطالبهم ويخدمونهم كأفراد ومجموعات.
- (ب) تأليف مناهج مرتبطة مشتملة على مواضيع رئيسيّة، تختلف أصولها بالنّسبة إلى نوع الطّالب، ويترك للمعلّمين انتخاب الجزئيّات.
- (ت) أن يتولّى التّعليم جماعة من الأساتذة المقتدرين، والّذين مارسوا التّعليم ورغبوا فيه.

إنّ الخالدي لم يأخذ على التّعليم الأمريكي مسابره المتوسّطين من التّلاميذ على حساب النّاهيين المتفوّقين فقط، بل انتقد تفكُّك السّبكة التّعليميّة الّتي يُزوّد بها التّلميذ الأمريكي، بفعل نظام الأرصدّة⁽¹⁾.

¹ - أنظمة التّعليم، ج 1. ص 160.

كان الخالدي من المؤيدين في أن يكون التّعليم نظامًا تدريبيًا يحدُّ على الأعمال الذّهنيّة، لا نظامًا لحشو الدّماغ بالمعلومات فقط؛ وبهذا فإنّه يرى أنّ النّظام الأمريكيّ المعتمد على الأرصدة لا يؤدّي مهمّة التّدريب الذّهني⁽²⁾.

ولا يكتفي الخالدي بالدّعوة إلى وحدة النّظام التّعليميّ واتّساقه في سياق واحد؛ بل يؤمن بضرورة مُثل المدرّسين⁽³⁾.

ولهذا يمكننا أن نصنّف عقيدة الخالدي في التّربية بأنّها العقيدة الشّاملة، التي تدخل كل التّفاصيل والعناصر والعاملين والمعلّمين، ضمن النّظام التربوي، وفق خطّة تُرسم لكل المساهمين في العمل. وهذه التّربية الشّاملة تبدأ منذ اليوم الأوّل:

"إنّ العادات المنظّمة يجب اعتيادها وتثبيتها منذ اليوم الأوّل، وأساس تكوين العادات وتثبيتها من اليوم الأوّل، إلى أن يصبح العمل ميكانيكيًا، فلا يحتاج إلى تفكير، لأنّ الطّالب يحتاج في حياته إلى تنشئة عادات جسديّة وخلقّيّة وذهنيّة... وبهذا تصبح العادة خادمة للفكر"⁽⁴⁾

¹ - انظر: أنظمة التّعليم. ج.1. ص 117-119. الموسوعة الفلسطينيّة (الدراسات الخاصّة). ج.3. ص

719.

² - أنظمة التّعليم. ج.1. ص 154-155.

³ - أنظمة التّعليم. ج.2. ص 166.

⁴ - الخالدي، أحمد سامح. إدارة الصّفوف. القدس، 1928. ص 6-7.

ملخص

في هذا البحث تطرّفنا إلى أحمد سامح الخالدي؛ رائد الفكر السياسيّ التربويّ في فلسطين، متناولين جميع الجوانب التي من شأنها أن تضيف إلى هذه الشّخصيّة المتميّزة في الكتابة والفكر.

وتناولنا ما كتبه هذا المرّي الكبير سواء في التّاريخ، أم في التّربية التي أتقن ملامستها، وبرع في التودّد إليها.

كان موضوع بحثنا متمركزاً في كتابين لهذا الكاتب الكبير، وهما: "رجال الحكم والإدارة في فلسطين" و "أنظمة التّعليم".

فممرنا على الكتاب الأول مروراً سريعاً، لأنّه يسرد سرداً تاريخياً أسماء الولاة والحكام في فلسطين، منذ العهد الرّاشديّ إلى الرّمن العثمانيّ. وكان كتاب "أنظمة التّعليم" هو المحور الأساس لهذا البحث، حيث تعرّفنا على فكر الكاتب الذي يدعو إلى التّمسك بالعربيّة، وعلى إعطاء المتميّزين من الطّلبة حقوقاً تفوق حقوق الآخرين من أقرانهم، الأمر الذي يسجّل على هذا المفكّر والتّربويّ الكبير.

والحقّ أنّ اعتمادنا على المصادر التي سجّلت لهذا المفكّر كان خير معين لنا في إثبات وإخراج هذا البحث إلى حيّز الوجود؛ الأمر الذي يعود بالفائدة على طالب العلم والمعرفة.

المراجع والمصادر

1. أبو غزالة، عدنان. الثقافة القوميّة في فلسطين خلال الانتداب البريطاني. د.م: مكتبة الأدب والثقافة الفلسطينيّة، د.ت.
2. الخالدي، أحمد سامح. إدارة الصُّفوف. القدس: دن، 1928.
3. الخالدي، أحمد سامح. أنظمة التّعليم. القدس: دن، 1933.
4. الخالدي، أحمد سامح. رجال الحكم والإدارة في فلسطين. القاهرة: دن، 2008.
5. السّوافيري، كامل. الأدب العربيّ المعاصر في فلسطين. (1860-1960). د.م: دن، 1978.
6. شاهين، عمر. موسوعة فلسطين في القرن العشرين. د.م: دار الثقافة في منظّمة التّحرير، 1992.
7. العودات، يعقوب. من أعلام الفكر والأدب في فلسطين. القدس: دن، 1992.
8. الموسوعة الفلسطينيّة (القسم الثّاني - الدّراسات الخاصّة). بيروت: دن، 1990.
9. الموسوعة الفلسطينيّة. دمشق: دن، 1984.
10. alqudslana.com/index.php?action=article&id=3055

